حول إعجاز القرآن

١

الفاصلة وبداعة الأسلوب

للأستاذ السباعي السباعي بيومي

المدرس بدار العلوم

ما الفاصلة ؟ تكلمت العرب الشعر والنثر فجاء في شعرها الرجز والقصيد ، وفي نثرها المسجوع والمزدوج والمنثور ؛ وبدهي أن القرآن جاء نثرا لا شعرا ، ولكنه لم ينضو تحت أقسام النثر السالفة لا مجموعة ولا فرادى ، فما هو باللفظ المنثور يرسل كله إرسالا خاليا من كل قيد يراه القارئ . ويلحظه السامع في التقفية والوزن ؛ ولا هو بالمتزاوج الجمل والعبارات بحيث ترى كل اثنتين منهما أو أكثر ، على خلوهما من التقفية ، متعادلتين تقريبا في الأقيسة والموازين ، كما أنه ليس بذي التقفية التي تراها في الأسجاع ؛ إنما هو كلام أحكمه الله ثم فصله آيات كما قال جل شأنه : « كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير » فجاء آيات متلاحقات تختم في كل سورة غالباً بمقاطع متشابهات ذات إيذان بالانتهاء ، دون أن تتقيد بحرفية السجع أو موازنة الازدواج ، ودون أن تخلو كل الخلو من مظاهر التقييد ، فلم يقبل لذلك أن يطلق عليه اسم من تلكم الأسماء ، وعرف وحده باسم المفصل أخذا من الفاصلة ، التي هي مقطع الآية فيه ، كالقرينة في السجع والقافية في الشعر . نعم قد جاء فيه يشبه المتزاوج والمسجوع ، وكان يصح أن يسمى بهما لولا أنه قد خرج في كثير منهما بالطول خروجاً لم تك تألفه العرب فيهما ، وتقرب بذلك من التفصيل الذي وسع الطويل ولم يأب القصير ، فقصرت التسمية في القرآن عليه دون المعروف من أقسام المنثور كما تعارف العلماء .

اتصال الفاصلة بمعنى آيتها — ولقد كان القرآن يمهد للفاصلة بمعنى آيتها تمهيداً تقع به مستقرة فى مقرها ، وتأتى متعلقاً معنى الكلام بمدلولها . انظر قوله تعالى: « لاتدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير » كيف وقع « اللطيف » كالعلة لصدر الآية ، و« الخبير » كالعلة لعجزها . وانظر قوله على لسان قوم شعيب لشعيب : « قالوا ياشعيب أصلاتك تأمرك أن نترك مايعبد آباؤنا أو أن نفعل فى أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد » كيف جاءت الفاصلة على سبيل التهكم ، من الحلم المناسب لترك معبوداتهم ، والرشد الملائم لما تلاذلك من عدم التصرف فى أقوالهم . وكذا قوله تعالى : « أولم يهد لهم كم أهلكنا من قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات أفلا يسمعون أولم يروا أنا نسوق الماء إلى الأرض الجرز فنخرج به زرعا تأكل منه أنعامهم وأنفسهم أفلا يبصرون » فإنه ختم الآية الأولى بالسمع المعنوى ، لأنها معنوية ليس فيها ما يحس . وختم الثانية بالإبصار الحسى لأنها من مشاهدات الحس .

ارشاد الآية الى فاصلتها — ولوثاقة العلاقة بين معنى الآية والفاصلة كانت الآية ترشد إلى فاصلتها كل ذى قلب مفكر ، ولسان معبر . قال زيد بن ثابت : أملى علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة فى قرار مكين ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقا آخر » فعند ذلك قال معاذ بن جبل : « فتبارك الله أحسن الخالقين » فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ فقال له معاذ : لم ضحكت يارسول الله ؟ قال : بها ختمت . وكانت الفاصلة لذلك إذا غيرت أمام من تلك صفته ، ولو لم يك حافظا للقرآن أبى ذلك التغيير على محدثه . روى أن أعرابيا سمع قارئا يقرأ : « فان زللتم من بعد ماجاءتكم البينات فاعلموا أن الله عزيز حكيم » ولكنه جعل الفاصلة « غفور رحيم » ولم يك الأعرابى يحفظ القرآن ؛ فقال : أما إن كان هذا كلام الله فلا ، إن الحكيم لايذكر الغفران عند الزلل بعد البينات ، لأنه إغراء عليه .

اختلاف الفاصلة باختلاف الألفاظ أو السياق — ومن الفواصل ما كانت تختلف لتغير لفظة واحدة فى آيتين، قال الله تعالى: «وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون. ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون». فجعلها بعد الشعر من الايمان لأن مخالفة القرآن له، تدعو إلى سرعة التصديق. وبعد قول الكاهن من التذكير، لأن مخالفة القرآن له تدعو - لوجود المشابهة ظاهرة - إلى بعض التدبر والتفكير. بل كانت تختلف الفاصلة فى الآية الواحدة تأتى فى موضعين لاعتبارين. قال تعالى فى سورة إبراهيم: «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الانسان لظلوم كفار»، وقال فى سورة النحل: «وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها إن الله لغفور رحيم». فأتى بها فى الآية الأولى من صفات المنعم عليه، وفى الثانية من صفات المنعم، وكلتاهما مناسبة للآية فى ذاتها لأنها متعلقة بالله والانسان؛ ولكن الحديث فى سورة ابراهيم كان مسوقا قبلها فى صفات الناس وعدم شكرهم على تعدد نعم الله، ولذلك يقول: «وآتاكم من كل ما سألتموه»، فأتى بها من الظلم والكفر المناسبين للسياق من صفات الانسان. وفى النحل كان الحديث فى ذكر صفات الله، ألا تراه قبل الآية يقول: «أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون»، فأتى بها من المغفرة والرحمة، وهما من صفات الله الملائمة لما تعوده سبحانه إزاء طغيان الانسان من الكرم والغفران. ومن هذا النوع ما جاء فى ثلاثة مواضع كقوله تعالى فى سورة المائدة: «ومن لم يحكم بما أنزل الله». فقد ختمها بثلاث فواصل فى ثلاثة مواضع هى قوله: «فأولئك هم الكافرون»، وقوله: «فأولئك هم الظالمون»، وقوله: «فأولئك هم الفاسقون». وذلك لأنه يقصد فى الأولى من جحد ما أنزل الله وهم الكافرون. وفى الثانية من خالف ما أنزل عن علم وهم الظالمون، وفى الثالثة من خالفه عن جهل وهم الفاسقون. ولذلك كانت الفاصلة تتحد فى الآيتين متى بقيت المناسبة. كما فى آيتى الاستئذان بسورة النور وهما: «يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم، بعضكم على بعض، كذلك يبين الله

لكم آياته والله عليم حكيم وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستأذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم » . فالفاصلة فيهما واحدة إلا أنه أضاف الآيات فى الأولى إلى ضميره سبحانه ، وفى الثانية أناب عن هذا الضمير (أل) اعتمادا على سبقه إياها .

مجىء بعض الفواصل على خلاف مقتضى الظاهر — وقد يفيد ظاهر الفاصلة عدم ملاءمتها للاية ، ولكن تدبرا قليلا فى المعنى يدفع هذا الظاهر ويكشف عن ملاءمة وثيقة الصلة شديدة الارتباط ، من ذلك مثلا قوله تعالى على لسان عيسى عن قومه : « إن تعذبهم فانهم عبادك وإن تغفر لهم فانك أنت العزيز الحكيم » ، فان قوله : « وإن تغفر لهم » يقتضى ظاهره مجىء الفاصلة من الغفران ، غير أن من يعلم أنه لا يغفر لمستحق العذاب فى نظر الناس إلا ذو العزة الذى ليس فوقه عزيز ، وهو الله . ثم يعلم مع ذلك أن الله يرى إذا فعل هذا مالا يرى الخلق من حكمة يجهلونها ، لا يتردد فى أمر الفاصلة تأتى من العزة والحكمة كما أتت من المغفرة والرحمة كما اقتضى ظاهرها . وآيات هذا النوع كثيرة وكل واحدة منها توصى لمن يتدبرها أنها بفاصلتها ، وفاصلتها بها ، أحق وأولى من غيرها .

هداية الاية الى فاصلتها باللفظ مع المعنى — وفى القرآن فواصل كثيرة كانت الآية تمهد لها فوق تمهيد المعنى بالألفاظ نفسها أو بلازم معنى الألفاظ ، فمن النوع الأول ما توافق فيه الفاصلة أول الآية . ويسمى رد العجز على الصدر كقوله تعالى : « وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب » . ومنه ما توافق فيه آخرها كقوله : « أنزله بعلمه والملائكة يشهدون وكفى بالله شهيدا » . ومنه ما توافق فيه الوسط كقوله : « قال لهم موسى ويلكم لا تفتروا على الله كذبا فيسحتكم بعذاب وقد خاب من افترى » . والنوع الثانى كثير ، ومنه قوله تعالى : « وآية لهم الليل نسلخ منه النهار فاذا هم مظلمون » ، فان انسلاخ النهار من الليل يستلزم الظلمة ولذا جاءت الفاصلة منها .

التصرف للفاصلة مع المحافظة على المعنى — ولقد تصرف القرآن فى تهيئة التراكيب للفاصلة تصرفا واسع المدى، وكان مع ذلك محتفظا أيما احتفاظ بتبعية اللفظ للمعنى؛ بل كثيرا ما آتاه هذا التصرف مآرب أخرى، وهذا شىء امتاز به على سائر الكلام.

فمن ذلك تقديم المعمول على العامل فى قوله تعالى: «أهؤلاء إيا كم كانوا يعبدون»، وقوله «إياك نعبد وإياك نستعين»، والمزية الزائدة هنا فوق تحقيق الفاصلة بهذا التقديم إفادة التخصيص والحصر.

ومنه إيراد الجملة اسمية لا فعلية فى قوله تعالى: «ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وماهم بمؤمنين». ولا تخفى مزية الاسمية على الفعلية فى نفى الايمان عنهم هنا، وبخاصة الفعلية الماضوية التى كان يقتضيها ظاهر السياق مشاكلة لأول الآية.

ومنه إيثار المفرد على الجملة كما فى قوله تعالى «وليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين». واسم الفاعل هنا له على الماضى فضل الاستمرار والثبوت.

ومنه الاتيان بالظاهر بدلا من الضمير كما فى قوله: «والذين يمسكون بالكتاب وأقاموا الصلاة إنا لا نضيع أجر المصلحين»، والفضل الزائد هنا بمجىء الظاهر تعريفنا من المصلحون فى نظر الدين.

ومنه الاتيان بصيغة الفاعل مكان صيغة المفعول فى قوله تعالى: «من ماء دافق». وفى إسناد التدفق الى الماء نفسه دلالة على أن قوة الدفق من طبيعته.

ومنه عكس ذلك كما فى قوله تعالى: «حجابا مستورا». ولأن يتناول الستر الحجاب نفسه مع المستور خلفه أبلغ فى قوة الستر واختفاء المستور.

ومنه حذف المفعول كما فى قوله تعالى: «فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسنى». وفيه بيان أن المراد مطلق الاتصاف بالاعطاء والاتقاء لا بيان المعطى والمتقى.

ومنه الاتيان بهاء السكت فى قوله تعالى: «ما أغنى عنى ماليه هلك عنى سلطانيه» وفيه تحقيق فوق الفاصلة بمشاكلة تامات التأنيث قبل مد هذا المتفجع النادب بما يتناسب فى الايقاع مع حال المتأوه المفجوع.

ومنه غير ذلك كثير مما تظهر فيه مع تحقيق الفاصلة مزية جديدة على نحو ما ذكرنا ، فاذا لم تظهر لأفهامنا تلك المزية وقد تكون خافية علينا ، فلا أقل من ألا نجد لما لم يحقق الفاصلة فضلا ما على ما يحققها ، وإذن يكون لما يحققها فضل هذا التحقيق .

ومن ذلك تذكير الصفة أو تأنيثها سواء أكانت هي الفاصلة كما فى قوله تعالى : « أعجاز نخل منقعر » أو قوله : « أعجاز نخل خاوية » . أم ممهدة للفاصلة كما فى قوله : « وكل صغير وكبير مستطر » وقوله : « لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها » .

ومنه مجيء صيغة مكان أخرى كما فى قوله تعالى : « إن هذا لشيء عجاب » بدلا من عجيب ؛ أو مراد فى مكان آخر كما فى قوله : « سأصليه سقر » بدلا من لظى مثلا ، أو حركة مكان غيرها كما فى قوله : « فأولئك تحروا رشدا » إيثارا لفتح الشين هنا على سكونها فى « رشدا » وهكذا .

التناظر بين فاصلة وفاصلة — ولقد راعى القرآن الكريم فى معظم فواصله انتهاء الكلمات الأخيرة فيها بحروف المد واللين أو هاء السكت لأنها تمكن القارىء من الترنم والترتيل ، كما راعى فى حروف هذه الكلمات وأوزانها بين كل فاصلتين أو أكثر التماثل أو التقارب ، وافتن فى ذلك افتنانا بعيدا بديعا .

فكان من ذلك الفاصلتان المتفقتا الآخر وزنا لا تقفية ، مع مقابله غير تامة فيما قبله كما فى قوله تعالى : « يوم يكون للناس كالفراش المبثوث وتكون الجبال كالعهن المنفوش » ومع مقابلة تامة كما فى قوله : « وآتيناهما الكتاب المستبين وهديناهما الصراط المستقيم » .

والفاصلتان المتفقتان تقفية لا وزناً مع مقابلة غير تامة كما فى قوله « إلاحميما وغساقاً جزاء وفاقا » . ومع مقابلة تامة كما فى قوله : « والليل إذا عسعس والصبح إذا تنفس » والفاصلتان المتفقتان وزناً وتقفية مع مقابلة غير تامة كما فى قوله : « فيها سرر مرفوعة وأكواب موضوعة » . ومع مقابلة تامة وهو كثير كما فى قوله : « إن إلينا إيابهم ثم إن علينا حسابهم » وقوله : « إن الأبرار لفى نعيم وإن الفجار لفى جحيم » .

ومن الفواصل ما كانت تجمع فوق اتحاد الحرف الأخير اتحاد حرف أو اثنين أو ثلاثة قبله غيره، ومع ذلك لا يشعر القارىء بشيء من التكلف مطلقاً بل لا يكاد يشعر أن هنالك اتحادا. مثال الحرف قوله: «فأما اليتيم فلا تقهر وأما السائل فلا تنهر» وقوله: «ألم نشرح لك صدرك ووضعنا عنك وزرك الذى أنقض ظهرك ورفعنا لك ذكرك» ومثال الحرفين قوله: «والطور وكتاب مسطور» وقوله: «ما أنت بنعمة ربك بمجنون وإن لك لأجراً غير ممنون». ومثال الثلاثة قوله: «إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فاذا هم مبصرون وإخوانهم يمدونهم فى الغى ثم لا يقصرون» وبهذا وقع الاتحاد فى حرفين وثلاثة وأربعة.

هذا بعض ما أردنا إثباته عن الفاصلة فى القرآن وهى ناحية فريدة بذ فيها كلام العرب، فكانت أدل شيء على بدع الأسلوب وقوة الإعجاز، على أنه بذهم فى كل ناحية أخرى مما يتفاضل فيه الكلام، فبذهم فى الفصاحة بمهداتها ودرجاتها، كما بذهم فى البلاغة على تعدد ألوانها. وإن لنا لجولات فى ذلك إن شاء الله تعالى.

السباعى السباعى بيومى

٣

سئل العباس: أنت أكبر أم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو أكبر منى وأنا ولدت قبله.

٤

كان بين يدى معاوية ثريد كثير السمن ورجل يؤاكله فخرقه إليه؛ فقال له معاوية: أخرقتها لتغرق أهلها؟ فقال: سقناه إلى بلد ميت.